المفكّر الإسلاميّ بشير العَوْف وكتابه «تعاليم الإسلام»

الأب كميل حشيمه اليسوعيّ*

في منتصف الصيف الماضي لبّى نداء ربّ العالمين المرحومُ الأستاذ بشير العوْف المفكّر الإسلاميّ الكبير، وكان لرحيله المبكّر وقعٌ أليم في قلوب عارفيه وقادريه. فالرجل كان من أعلام العلماء، متبحّرًا في الشؤون الإسلاميّة كافّة، صحافيًّا مرموقًا وكاتبًا وشاعرًا، فضلًا عن التزامه أمور مجتمعه ووطنه العربيّ الوسيع. وقد خلّف خمسةً وعشرين مؤلّفًا تشهد له بطول الباع في شتّى الميادين، منها كتاب ضخم في جزءين بعنوان تعاليم الإسلام بين المعتّرين والميتّرين في مذاهب أهل السنّة والجماعة[1]. ولمّا كان هذا المؤلّف يُعالج أمورًا حسّاسة بجرأة مقرونة بالاتّزان، رأينا أن نتوقّف عنده، ونسبر أغواره، ونستخلص زبدته. ولا بدّ، قبل ولوجه، من تسليط بعض الأضواء على شخصيّة صاحبه ونتاجه عامّةً.

أ - الرجل: فكر وإيمان

إتّسمت حياة المرحوم بشير العوْف بنشاط بالغ، متعدّد الجوانب، لا يستطيع أن ينهض به إلاّ الجبابرة. فقد كان مديرًا مسؤولًا لصحيفة الأيّام الدمشقيّة، ثمّ أصدر سنة ١٩٤٩ جريدةً خاصّة به سياسيّة مستقلّة أسماها

(*) مدير مجلّة المشرق ودار المشرق.

(١) صدر الجزء الأوّل سنة ١٩٩١، والجزء الثاني سنة ١٩٩٣، وكلاهما عن دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ٣٤٤ + ٤٣٧ صفحة.

المنار، وظلّ رئيسًا لتحريرها ومديرها المسؤول طوال أربع عشرة سنة حتّى عام ١٩٦٣.

إنتُخب نائبًا عن دمشق في مجلس الاتّحاد القوميّ عام ١٩٥٨ في زمن الوحدة بين مصر وسورية.

عمل أستاذًا زائرًا في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة الملك عبد العزيز في جدّة (معهد الإعلام) عام ١٩٨٠.

دُعي إلى المؤتمر الإعلاميّ الإسلاميّ في إندونيسيا سنة ١٩٨١، واختير عضوًا في «المجلس الأعلى العالميّ للإعلام الإسلاميّ».

إشترك بكونه صحافيًّا في معظم مؤتمرات القمّة العربيّة الإسلاميّة وعدم الانحياز، كما اشترك في أكثريّة مؤتمرات وزراء خارجيّة الدول العربيّة والإسلاميّة.

حرّر، فضلًا عن كتبه الخمسة والعشرين، ما يربو على خمسة آلاف مقال في السياسة والأدب والفكر الإسلاميّ، صدر أغلبها في جريدته المنار، وبعد احتجابها، في الصحف اللبنانيّة والسعوديّة والعربيّة.

له أكثر من مائتي حديث إذاعيّ في الأدب والقصّة والشعر، أُذيعت من لندن ودمشق وسواهما من المدن، كما حاضر في مناسبات كثيرة[٢] وخطب.

وجميع تلك النشاطات كانت تنبع من رغبة العوف العميقة في أن يكون داعيةً إسلاميًّا يخدم الإنسان والمجتمع بإخلاص من خلال تعاليم دينه. وهذه الرغبة الوثّابة إنّما كانت وليدة إيمانه الراسخ بسموّ الإسلام، مع احترامٍ صادق لجميع الناس وسائر الأديان. ولا عجب

---

(٢) إستقينا المعلومات السابقة من مقدّمات المحاضرة التي ألقاها بشير العوف في بيروت، بتاريخ ١٩٩٣/١/٨ وعنوانها «التعاون والتعاطف بين المسلمين والمسيحيّين ضرورة دينيّة حضاريّة» (وقد أُسعدنا بالاستماع إليها)، نشرتها جمعيّة ندامى الكشّاف المسلم في لبنان سنة ١٩٩٣ (ص ١٣-٢٠).

إذ ذاك أن تكون مؤلّفاته، في معظمها، تنحو منحى الالتزام الدينيّ والاجتماعيّ.

ب ـ المؤلّفات[٣]

في الفكر الإسلاميّ

١ - إشتراكيّتهم وإسلامنا، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٦٦ ـ وهي بحوث علميّة مبسّطة عن التيّارات الاشتراكيّة، مع بحث ختاميّ عن العدالة الاجتماعيّة في الإسلام.

٢ - الكتاب الأخضر، بيروت، ١٩٦٦ ـ كشفٌ عن الأغراض الخفيّة التي دفعت بعض الحركات الثوريّة في العالم العربيّ نحو التصدّي لفكرة «التضامن الإسلاميّ»، وهي التي تجسّدت في ما بعد بظهور «منظّمة المؤتمر الإسلاميّ».

٣ و٤ - تعاليم الإسلام بين المعسّرين والميسّرين...، بيروت، ١٩٩١، ١٩٩٣ - سيأتي الكلام عليه مطوّلًا في الصفحات التالية.

في الفكر السياسيّ

٥ - لا ثوريّة ولا اشتراكيّة، بيروت، ١٩٦٧ ـ بحوث تاريخيّة موجزة عن أهمّ الحركات الثوريّة عبر العصور، ووقوفها جانبًا دون التقدّم الحضاريّ المطلوب.

٦ - العرب وروسيا، بيروت، ١٩٦٩ ـ تقويم واسع لحقيقة العلاقات السوفياتيّة مع الثوريّين العرب من خلال الغزو السوفياتيّ المسلّح لتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨.

٧ - رسائل إلى جمال عبد الناصر، بيروت، ١٩٦٩ ـ عشرون رسالة وُجّهت إلى الرئيس عبد الناصر، فيها مناقشة صريحة لبعض نواحي سياسة مصر الداخليّة والخارجيّة في عهده.

٨ - لعبة السوفيات بمصر، بيروت، ١٩٧٣ ـ سرد علاقات السوفيات

---

(٣) راجع: تعاليم الإسلام...، المجلّد الثاني، ص ٤٣١-٤٣٧.

بالثوريّين العرب، وبيان مسؤوليّة مصر والثوريّين العرب وروسيا في هزيمة حرب الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦٧.

٩ - السياسة المرحليّة، بيروت، ١٩٧٤ ـ أبحاث عن السياسة المرحليّة في دعوة الرسول العربيّ، من بدء الدعوة حتّى صلح الحديبيّة وفتح مكّة، وذلك لمناسبة فكّ الارتباط بين الجيوش المريّة والإسرائيليّة.

في الوثائق

١٠ - الانقلاب السوريّ، دمشق، ١٩٤٩ ـ وثائق مفصّلة عن أوّل انقلاب عسكريّ حصل في سورية على يد حسني الزعيم سنة ١٩٤٩.

في الصحافة

١١ - الصحافة، ـ سلسلة محاضرات عن تاريخ الصحافة أُلقيت على طلاّب «معهد الإعلام» في جامعة الملك عبد المزيز بجدّة عام ١٩٨٠.

في الأدب والشعر

١٢ - قطوف المعرفة، بيروت، ١٩٨٣ ـ مجموعة أحاديث أذاعها المؤلّف بصوته، بعضها من محطّات عربيّة، ومعظمها من محطّة لندن.

١٣ - قطوف الأرب، بيروت، ١٩٨٧ ـ عشرون قصّة تاريخيّة مستوحاة من آداب العرب، ومعها تراجم عددٍ كبير من أعلام الأدب والتاريخ.

١٤ - ثمالات الندى، بيروت، ١٩٨٣ ـ ديوان شعر: ٧٦ خماسيّة في الحبّ والحرب والأدب والسياسة.

١٥ - خمائل الطيب، بيروت، ١٩٨٤ ـ ديوان شعر فيه قصائد المناسبات وأبيات في الغزل والنقد.

١٦ - هالات الضياء، بيروت، ١٩٨٦ ـ ديوان شعر يشبه بمضمونه ديوان خمائل الطيب مع زيادة قسم خصّصه الشاعر لمواثٍ قالها في ولده الفقيد منذر.

١٧ - سنابل الحنين، بيروت، ١٩٩١ ـ ديوان شعر: مناسبات، خماسيّات في الغزل والحياة.

١٨- همس الغروب، ديوان شعر كالسابق.

في القصّة

١٩- بائسة، دمشق، ١٩٥٢ ـ إنسانيّة تحليليّة.

٢٠- كيف غالبتُ الموت، دمشق، ١٩٦١ ـ عشر قصص واقعيّة عن حوادث الطيران الجويّ شهد المؤلّف أحداثها.

٢١- الدرب الشائك، بيروت، ١٩٦٦ ـ اجتماعيّة أخلاقيّة.

٢٢- زوجة المشير، بيروت، ١٩٨٤ ـ قصّة حبّ في نقد سياسيّ لاذع لبعض الحكّام الثوريّين العرب وتناقض أفعالهم مع أقوالهم.

كتب قيد الطبع

٢٣- إحياء الاجتهاد ـ أبحاث عن الدين واللغة وحثّ على إحياء الاجتهاد في الفقه الإسلاميّ واللغة العربيّة.

٢٤- قطوف الخاطر ـ دراسات وتحقيقات في الدين والتاريخ والإعلام والأدب.

٢٥- [٤].

ج ـ كتاب «تعاليم الإسلام»

هدفُ بشير العوّف في مصنّفه هذا ليس التفسير ولا الاجتهاد أو الفقه أو التشريع الدينيّ. بل هو، على حدّ قوله «كتاب توجيه وإرشاد، ندلّ فيه ـ ما استطعنا ـ على مواطن الاستفادة من أقوال وأعمال الرسول الأعظم، صلوات الله وسلامه عليه، بما تلقّاه من أوامر الله سبحانه وتعالى، وبما حفظه عنه الصحابة والتابعون، ومَن جاء بعدهم من الأئمّة المجتهدين والعلماء العاملين، الذين اختاروا دروب التيسير وجعلوا أمور الدين هيّنةً

(٤) يُزاد إلى الكتب السابقة المحاضرة حول «التعارف والتعاطف بين المسلمين والمسيحيّين» التي ذكرناها في أعلاه، وقد نشرت أيضًا في آخر المجلّد الثاني من تعاليم الإسلام.

ليّنة، يؤدّي فيها الإنسان المسلم حقوق الله على عباده بدون عنت»[٥].

وما شجّع المؤلّف على المضيّ في مشروعه ملاحظتُه أنّ التشدُّد والتعصُّب المتشرّين في عصرنا بين جماعات كبيرة من المسلمين، لا يمتّان إلى الإسلام بصِلة، وهما يسيئان إليه أشدَّ الإساءة، كما أنّهما يناقضان ما ورد في القرآن الكريم من آيات تدعو إلى التيسير لا التعسير والتزمُّت:

«فإنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا. إنّ مع العُسْرِ يُسْرًا.
يُريد اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يريدُ بكم العُسْرَ»
(سورة البقرة: الآية ١٨٥)

يُقابل ذلك ما جاء في الحديث الشريف:

«بَشِّروا ولا تُنفِّروا، ويسِّروا ولا تُعسِّروا».
و«إنّما بُعِثتُم ميسِّرين ولم تُبعَثوا معسِّرين»[٦].

وعلى هذا الأساس ينطلق العرْف من حوادث واقعيّة شهدها المجتمع الإسلاميّ وفيها التعصّب والتشدّد، فيحلّلها في ضوء تعاليم الكتاب الكريم والحديث والسنّة وتقاليد الإسلام العريقة. ومن الموضوعات الكثيرة التي عالجها: كيفيّة مواجهة الصليبيّة الجديدة، الحجاب، المصافحة بين الرجل والمرأة، الفائدة والربا، حقوق المرأة، الطلاق، تعدّد الزوجات، الاختلاط بين النساء والرجال، التعاطف بين المسلمين والمسيحيّين.

وسوف نتوقّف عند بعض ما قاله في بعضها.

الصليبيّة الجديدة: لا يخشى العرف من استعمال كلمة «الصليبيّة» لوصف ما تقوم به بعض الدول المستعمرة بغية الخفض من شأن الإسلام. ولكنّه لا يقول ذلك من باب تجريح المسيحيّين: ذلك بأنّه يميّز بين

---

(٥) تعاليم... ج ١، ص ٣٠.
(٦) تعاليم... ج ١، ص ٢.

السياسيّين الطامعين الذين يستعملون الدين مطيّة لمآربهم، والشعب المسيحيّ الذي هو، بأكثريّته الساحقة، «من النوع البريء الطيّب المسالم، الذي تفهّم معاني الحضارة الإنسانيّة، وأدرك مفاهيم حقوق الإنسان الصحيحة، وسعى ويسعى إلى العيش بسلام مع شعوب الأرض»[٧]. كما أنّه يشيد «بالجمهرة المفكّرة الواعية التي ظهرت تقريبًا في معظم البلاد الأوربيّة والأمريكيّة، والتي راحت تكتب وتنشر وتؤلّف، فتدرس الإسلام بعمق ملحوظ وتتحدّث عن مزاياه بفكرٍ ثاقب، وتدعو إلى التقارب والتفاهم بين عالمَي المسيحيّة والإسلام في ظلّ أخوّة إنسانيّة شاملة تحترم المعتقدات وتصون الكرامات»[٨].

وفي حين يُبعد العوّف عن الدين المسيحيّ، وعن السواد الأعظم من أتباعه، سمةَ معاداةِ الإسلام، تراه، من جهة أخرى، لا يقبل أن يُضمر المسلمون العداوة للمسيحيّين، ويُندِّد بالمتعصّبين من أبناء دينه فيقول بصراحة وجرأة: «ونعود إلى أنفسنا أيضًا، فنعترف بأنّنا نحمل قسطًا كبيرًا جدًّا من مسؤوليّة تشويه حقائق الدين الإسلاميّ أمام معظم شعوب العالم. فنحن أظهرنا من التعصّب ما لا يُطاق، وأبرزنا من التزمّت ما لا يُحتمل (. . .) فضاعفنا ـ من حيث لا ندري ـ أو غذّينا ـ من حيث لا نريد ـ حملات العداء ضدّ الإنسان المسلم. مع أنّه كان مفروضًا بنا أن نتمسّك بالمناهج القرآنيّة الصريحة حسب ما أمرنا به الله تعالى: «أُدْعُ إلى سَبيلِ ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادِلْهم بالتي هي أحسن» (سورة النحل: ١٢٥)».

الحجاب: لقد شغلت مسألة الحجاب في الآونة الأخيرة الكثير من الأوساط سواء في البلدان الإسلاميّة أو الأوروبيّة، فأقامت الدنيا ولم تقعدها في مصر وفرنسا وبلجيكا وسواها. أمّا بشير العوف فيميِّز بين الحجاب المعروف «بالغطس الأسود» والحجاب الشرعيّ البسيط.

---

(٧) تعاليم، ١: ١٧.
(٨) تعاليم، ١: ١٨.

فالأوّل، الذي تختفي تحته المرأة من قمّة الرأس إلى أخمص القدمَيْن، دون أن يظهر منها وجه ولا كفّ ولا قدم، مرفوض، «وبهذا الشكل القاسي يُعتبر خروجًا واضحًا عن تعاليم الدين الإسلامي الواضحة الصريحة، إذ المتّفق عليه بين أكثر الأئمّة المجتهدين والعلماء العاملين، في مذاهب أهل السنّة والجماعة، أنّ وجه المرأة وكفّيها ليسوا بعورة. وأنّه يجوز كشفها حين الخروج من البيت وفي أثناء مقابلة الرجال الأغراب، وكذلك في الصلاة والعبادة»[٩]. ويُضيف أستاذنا يقول ما مؤدّاه: إنّ القرآن الكريم يطلب أن تُعامل النساء كما يُعامل الرجال، فكيف يجيز الرجل لنفسه أن يفرض على المرأة مثل هذا الحجاب، وأن لا يفرضه على ذاته؟

أمّا في ما يخصّ «الحجاب الشرعيّ» الذي تعارَف عليه الناسُ في العصر الحاضر[١٠] فهو، في نظر العوف، محمود ومشكور لأنّه يُراعي مقتضيات الاحتشام واحترام حرّيّة المرأة بكونها إنسانًا.

ولا يكتفي الأستاذ بهذا القدر من التيسير، بل يتعدّاه ويقول بأنّ السفور الكامل، أي كشف الوجه والرأس واليدين، ليس بعصيان وهو مباح، إذا ما راعى الحشمة والآداب. فلئن كان الحجاب الشرعيّ هو المفضّل في نظر صاحبنا، إلاّ أنّه يعلن: «لا ننكر على مَن يختار من النساء لباس السفور المباح المحتشم، فللمرأة حقّ الاختيار طبقًا لما أوردناه في مستهلّ هذا الكتاب من أنّ للإنسان المسلم العاديّ أن يختار ما يُريد لما يريد من أيّ مذهب إسلاميّ صحيح معتمد (...) ولا نرضى بالتالي أن تُتّهم أيّ امرأة تعتمد السفور المباح المحتشم بتهم المروق (...) حتّى ولا بمجرّد اللوم أو التأثيم أو التأنيب»[١١]

---

(٩) تعاليم، ١: ٨٠-٨١.

(١٠) «وهو يقتضي تغطية الرأس والجسم، وكشف الوجه والكفّين بما فيهما الكاحل والخفاب والسوار والخاتم» (تعاليم، ١: ٩٢).

(١١) تعاليم، ١: ٩٤.

تعدُّد الزوجات: يقف العوف من هذه الظاهرة موقف الرافض كلّ الرفض، حتّى إنّه عنون الفصل الذي أفرده لها على هذا النحو: «لا تعدُّد للزوجات في الإسلام بنصّ القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهّرة». ويقول ما معناه: لقد حفظ الناس الآية الكريمة التي تنصّ: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مَثْنى وثُلاث ورُباع» ونسوا أو تناسوا أنّ هناك آيات أُخرى وأحاديث نبويّة شريفة وَضعت حدودًا صعبة قاسية تجعل الاقتران بأكثر من زوجة واحدة أمرًا يكاد يكون مستحيلًا. فقد جاء في الكتاب الكريم: «فإن خفتم ألاّ تَعْدِلوا فواحدةً»، ثمّ ورد في آية أخرى: «ولَن تَستطيعوا أنْ تعدلوا بين النساء ولو حَرَصْتم»[١٢].

وما دمنا في موضوع المرأة، نأخذ على بشير العوف مبالغته في الحطّ من وضع المرأة في الغرب. فبغية تأكيد ما كان للإسلام في رفع شأن المرأة، يقول إنّ «المرأة في أوربّا لا تزال مهضومة الحقوق» (١: ٢٩٧)، وإنّ «الرجل في بريطانيا يبيع زوجته» (١: ٢٩٧)، مستندًا إلى حادثة جرت في إنكلترا سنة ١٩٢٩. ويقول أيضًا: «ولعلّ بين أهمّ ما تفقده المرأة الأوربيّة من حرّيّتها وحقّها، وربّما من كرامتها، هو أنّه يجب عليها حتّى يومنا هذا، أن تتخلّى اجتماعيًّا عن نسبتها لأبيها واسم عائلتها» (١: ٢٩٧). نقول إنّ أستاذنا أخطأ هنا في أحكامه، وجعل من أحداثٍ منفردةٍ شاذّةٍ قاعدةً عامّة، لا بل نسي في مثاله الأخير أنّه لا غَضاضة في أن تلقّب المرأة بلقب زوجها، فهذا تدبير يُتّفق عليه لتيسير الأمور والمعاملات، والمسلمون أنفسهم في بلادنا ينحون هذا المنحى.

التعاون والتعاطف بين المسلمين والمسيحيّين: سبق أن ذكرنا[١٣] المحاضرة التي تحمل هذا العنوان، وقد ألقاها العوف في مطلع سنة ١٩٩٣. ورغبةً منه في تعميم الفائدة، أدرجها في أواخر كتابه (٢: ٣٤٦-

(١٢) سورة النساء: ٣ و١٢٨ ـ لم يأتِ العوف هنا بجديد. ولكن وجب ذكر موقفه لانفتاحه.

(١٣) أطلب الحاشية رقم ٤.

٣٩٠)، وهي في نظرنا مسك ختامه لما حوت من سامي الفِكَر وما تجلّى فيها من سماحة ورحابة صدر وبُعد أفق.

أكبرنا بشير العوف لمّا قال، في مطلع ما قال: لا ينبغي أن يكون المسلم على حذر من المسيحيّين بحجّة أنّهم مبشّرون: «فإنّي أرى أنّ النصارى حين يقومون بتبشيرهم للدين المسيحيّ، فإنّما يقومون بواجبهم الدينيّ»[١٤]. ويميّز بين بغض المبشّرين الذين باعوا أنفسهم للاستعمار، وليسوا من النصارى الحقيقيّين، والمبشّرين الصادقين. فمن حقّهم أن يمارسوا التبشير السليم النقيّ للدين المسيحيّ، كما أنّه من حقّ المسلم أن يبشّر بدينه. «ولا مانع أبدًا من أن يتنافس الفريقان في الدعوة إلى الله، كلٌّ بحسب معتقده ومفهومه، ومن ضمن الدعوة إلى الله على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة»[١٥].

ولا يكتفي العوف بقبول الفريق الآخر واحترامه، بل يدعو كلا الفريقين إلى التعاون على الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد. ولذلك لا يجوز الاختلاف بسبب الجزئيّات، بل يجب الاتّفاق على الكلّيّات، والكلّيّات توحّد بشعار الإيمان بالله الواحد على طريقة كلٍّ من الفريقين.

ويتوسّع البشير في موضوعه فيبيّن كيف أنّ التعاطف بين المسلمين والمسيحيّين كان قائمًا منذ بدايات الإسلام. والقرآن الكريم نفسه صريح في هذا الشأن: «ولتَجِدَنَّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأنّ مِنْهم قسّيسين ورهبانًا وأنّهم لا يَسْتكبرون»[١٦].

ويأتي المؤلّف على ذكر الجزية المفروضة على أهل الكتاب، فيدفع عنها اللبس والشبهة. فهي، خلافًا لما ظنّ بعضهم، لا تُفرض إذلالاً وامتانًا، بل حمايةً. وإذا ما نقصت تلك الحماية رُدّت الأموال إلى أصحابها كما ثبت ذلك من وقائع التاريخ. فحين اضطُرّ خالد بن الوليد

---

(١٤) تعاليم، ٢: ٣٤٨.
(١٥) تعاليم، ٢: ٣٤٩.
(١٦) سورة المائدة: ٨٢.

وأبو عبيدة وبقيّة القوّاد المسلمين إلى مغادرة المدن الشاميّة قبيل معركة اليرموك، قالوا لأهلها: «إنّا كنّا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية. ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه أموالكم نردّها إليكم»[١٧].

كذلك يدفع الشبهة عن معنى الآية الكريمة التي تقول: «حتّى يُعطُوا الجزيةَ عَنْ يَدٍ وهُم صاغِرُون»، فيتبنّى تفسير الدكتور مصطفى السباعي حيث قال إنّ اليد تعني القدرة، والجزية لا تُطلب إلاّ ممّن له قدرة على دفعها، لذلك أُعفي منها الصغار والعاجزون والرهبان والفقراء والنساء. أمّا قول «وهُم صاغرون» فتفسير الصَغار هنا بالخضوع والموالاة لسلطان الدولة كما يخضع الصغير لوالديه، وليس في الخضوع لقوانين الدولة إذلال للمواطنين.

ويأتي البشير أيضًا على ذكر أحداثٍ من حياة الرسول تُظهر تعاطفه مع النصارى، كمثل تعاطفه مع هرقل عظيم الروم ومع نصارى الأقباط، وسماحه لمسيحيّي نجران بالصلاة في مسجده. ويتوارد هنا إلى العوف حادثة مماثلة جرت له في عهدٍ قريب منّا، إذ اضطرّ أن يأتي إلى لبنان لاجئًا سياسيًّا من دمشق سنة ١٩٦٣، فلم يجسر على حمايته إلاّ البطريرك الماروني بولس بطرس المعوشي، الذي استضافه في صرح بكركي عشرة أيّام حتّى تمكّنت السلطات اللبنانيّة من تسوية وضعه. وفي المقرّ البطريركيّ أقام الصلاة بتشجيع من صاحب الدار بعد أن أمّن له سجّادة تليق بالوضع. ويذكر في هذا السياق الصلاة التي أدّاها في بكركي وفي عهد المعوشي أيضًا، وفدٌ من العلماء المسلمين برئاسة الشيخ شفيق يمّوت، بحضور سيّد المقام وسائر المطارنة والقُسوس والرهبان.

إلى ذلك يعود العوف مرّة ثانيةً إلى الحروب الصليبيّة، ويرفض رفضًا باتًّا اعتبارها حروبًا دينيّة بل سياسيّة استعماريّة اقتصاديّة، «وهي لم توصف

---

(١٧) تعاليم، ٢: ٣٦٠.

بأنّها دينيّة إلاّ لاستغلال ما في الدافع الدينيّ من إثارة عاطفيّة لكسب تأييد جماهير الشعب»[١٨].

كما يندّد، رحمه الله، بعنف المتعصّبين في مصر اليوم فيقول: «ليس من الإسلام في شيء اغتيالُ النصارى في مصر وفي غير مصر، أو إيذاؤهم بأنفسهم وأموالهم وأهلهم وذويهم، وليس من النصرانيّة في شيء أن يُمارس النصارى العمل ذاته ضدّ المسلمين، فكلا الفريقين يؤمن بإله واحد، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم»[١٩]. ويُتابع متسائلاً: إن كان الرسول يرفض مجرّد الدعاء على أعدائه، وإن كان المسلم مدعوًّا إلى الوفاء بعهوده حتّى مع المشركين، فأولى حجّة عليه أن يستكين للمسيحيّين ويُبادلهم الودّ والتعاطف، هم الذين في لبنان على سبيل المثال، «يشاركوننا في المواطنيّة والجوار ودوام التعامل معنا في السرّاء والضرّاء (...) في ظلّ دولةٍ واحدة، وعلى أرض واحدة، وتحت عَلَم واحد؟»[٢٠].

ويختم، طيّب الله ثراه، محاضرته القيّمة بهذا الكلام الناصع: «لا يجوز لنا أن نُمارس أيّ ظلم، ولا أن نقترف أيّ ذنب بحقّ أهل الكتاب عمومًا، وبحقّ النصارى خصوصًا، لأنّ هذا هو الإسلام الصحيح، في بليغ معانيه، وسموّ مقاصده، وبهذه الروح دعَونا وسنظلّ ندعو بإذن الله تعالى، إلى نبذ الظلم والحقد والكره، وإلى إقامة أوثق عرى التعاون والتعاطف ـ دينيًّا ـ بين مسلمي العالم ومسيحيّيه، سائلين الله تعالى أن يوفّق الجميع إلى ما يحبّه ويرضاه»[٢١].

---

(١٨) تعاليم، ٢: ٣٧٠.
(١٩) تعاليم، ٢: ٣٧١.
(٢٠) تعاليم، ٢: ٣٧٣.
(٢١) تعاليم، ٢: ٣٩٠.

د ـ الخلاصة

في ختام هذه العجالة التي عرضنا فيها شخصيّة بشير التوْف ومؤلَّفه الموسوعة تعاليم الإسلام، نستخلص بعض الأمور المهمَّة التي مرّت بنا:

الرجل رجل اعتدال وحوار وتسامح، وأمثاله، والحمد لله، في تزايد. وبقدر ما يكثُر هؤلاء يزداد السلام والتفاهم والمحبّة بين جميع الناس مهما اختلفت مشاربهم. فما يلفت النظر في انفتاحه هو أنّه لا يخشى التعدّديّة والاختلافات[٢٢].

وإنّه يسعى دومًا للوفاق، ويكره التعصّبَ، ويندِّد بالإرهاب، ويدعو المتشدّدين المعسّرين إلى محاورة الميسّرين. فالمتعصّبون، في رأيه، «يزايدون على رسول الله»[٢٣]. ولمّا كان هو نفسه في مدّة من الزمن شديد المدافعة عن الحركات الإسلاميّة (٢: ٩٨)، يستطيع أن يُخاطب المتشدّدين من موقع القوّة، وينبّههم إلى أنّهم والميسّرين والحكومات الراهنة على اتّفاق مبدئيّ، لا يختلفون إلاّ على الطريقة والتفاصيل (٢: ٩٧-٩٨). ولا يفوته أن يذكّر بالقاعدة الذهبيّة: تتغيَّر الأحكام بتبدُّل الزمان (٢: ٢٢٥).

والرجل رجل علم ومنطق، لا يلقي بطروحاته جزافًا عن سابق قصد أو تحقيقًا لأيديولوجيّة متحجّرة، بل إنّه يستند في كلّ ما يقول إلى الإثباتات الدامغة المستقاة من القرآن الكريم والحديث الشريف والسنّة وأقوال الأئمّة المجتهدين والعلماء العاملين وعِبرَ التاريخ. كما أنّه يُحسن الاستنتاج من القرائن بفضل رجاحة عقله وثاقب بصيرته.

والرجل يدعو إلى فتح باب الاجتهاد، مقتفيًا بذلك خطى عدد متزايد من المفكّرين. ولا عجب، فمَن كان على مثل ما كان من الانفتاح والذكاء البيّقدام، لا يمكنه أن يقبل بالجمود، وإذ به يعلن جهارًا: «إنّ الاجتهاد

---

(٢٢) تعاليم، ١: ٢٨٧.

(٢٣) تعاليم، ٢: ٤٠٥.

الفعليّ الضروريّ، اللازم لحاجات العصر وتطوّرات الزمن، قد توقّف نهائيًا تقريبًا منذ القرن الخامس الهجريّ ـ أي منذ ما قبل حوالى تسعماية سنة حتّى الآن ـ وهذا لا يجوز أن يستمرَّ مهما تكن الدواعي والأسباب (...) خصوصًا إذا لاحظنا أنّ مراعاة تطوّر العصر، وتغيّر الزمن، قد بدأت منذ وفاة الرسول»[٢٤]. ولا يفوته أن يذكر في هذا الصدد ما رُوي عن الرسول أنّ المجتهد له أجر إن أخطأ، وله أجران إن أصاب (١: ٢٨٥).

ومن هذا المنطلق يدعو البشير إلى إنشاء مجلس اجتهاديّ رسميّ إسلاميّ عالميّ يكون مركزه مكّة المكرَّمة، يشترك فيه علماء وفقهاء ومجتهدون في شريعة الإسلام من جميع أنحاء العالم الإسلاميّ، ويقوم إلى جانبهم متخصّصون في جميع العلوم الإنسانيّة والرياضيّة والطبيّة والحقوقيّة والتكنولوجيّة وسواها، ومهمّتهم مواجهة سائر مشكلات العصر مواجهةً حاسمة، مهتدين بما جاء في كتاب الله وسنّة رسوله، وبما قاله واعتمده الصحابة والتابعون وأعلام الاجتهاد وأئمّة الفكر الإسلاميّ[٢٥].

ولئن تجرّأ العوف في مواقفه، واعتدل في وجه مَن تشدَّد، وتشدَّد حيال مَن تهاون، وطالب بالاجتهاد في حين لا يأبه له الكثيرون، فلأنّه راسخ في إيمانه لا يستطيع أحد أن يزايد عليه من هذا القبيل. فأيًّا تكن، وأيًّا كان معتقدك، لا يمكنك إلاّ احترامه وتقديره، ذلك بأنّ المؤمن الحقّ، المخلص لربّه ودينه، هو، لا محالة، مخلص لجميع الناس. ألا رحمه المولى وأجزله الثواب.

---

(٢٤) تعاليم، ٢: ٣١.

(٢٥) تعاليم، ١: ٢٦٤، ٢٨٥ و٢: ٢٦-٢٧، ٣١-٣٢.